

ليلة في فرسوفيا

في إحدى ليالى شهر أغسطس أو سبتمبر ، حين تكون الحرارة في القاهرة قد بلغت أقصاها ، ويحجم على قلوب الناس هم من السعير الملتهب ، وفي تلك الأيام الخالية حين كان اسم هتلر يتلألأ في سماء ألمانيا ، بل في تلك السنة التي استضافت فيها ألمانيا أبناء العالم من شرق وغرب ، أعنى سنة الألعاب الاولمبية ، كان أربعة رجال من بنى البشر يخرجون مسرعين في جنح الليل من بناء جديد أشبه ما يكون بشكنة ، لكنه كان في الحقيقة مدرسة ، قاصدين إلى غاية يعلمها اثنان منهم على الأقل ؛ لأنهما كانا واثقين في سيرهما ، ويسير اليها الآخران واثقين في الصحبة .

كان الرجال الأربعة يرتدون معاطف لم يبلها المطر ، في تلك الليلة من شهر أغسطس أو سبتمبر ، ولكن البرد كان ينفذ إلى لحومهم بل إلى عظامهم بل إلى أفئدتهم ، فهم لم يكونوا في القاهرة ، ولا في برلين ، بل في فرسوفيا عاصمة الدولة البولونية .

كان الأربعة في سماتهم مزيجاً عجيباً من بنى البشر . ثلاثة قصرت قاماتهم على تفاوت في القصر ، وامتلأت أبدانهم على تفاوت في الامتلاء ، والرابع طويل القامة نحيل الجسد . كان أحدهم قصير القامة ضخم الوجه ذا لون أبيض أوربي مشرب بالصفرة ، وعينين خضراوين يتلألآن بشئ من حب الفكاهة والطيبة أيضاً ، وهو حليق الشاربين والرأس ، أو ما بقى من شعر الرأس ، فقد أعمل فيهما الموسى ، ولذلك بدا الرأس ضخماً متكوراً . وكان الطويل النحيل أبيض اللون أيضاً ولكنه ذو شعر غزير ، أو أن الشعر كان غزيراً ؛ فهو حليق اللحية ، ولكن الشعر ترك أترأ أخضر . وقد تدلى من كل جانب من فمه شاربان لونهما يميل إلى الصفرة . أما شعر الرأس فقد وقف عند الجبهة على باب الزوال وضاع الكثير من لمعته وحيويته . والشعر في هذه المرحلة يستجيب الى الهواء

في سرعة أو في صعوبة ، فهو إذا عبث به الهواء فقد تلك الاستجابة المتناسقة التي هي دليل الشباب .

أما الرجلان الآخران فسحنتهما تدل دلالة كافية على أنهما غربيان عن تلك البلاد ، أحدهما أبيض اللون — أجل — ولكن في بياضه حمرة عميقة فلما تشاهد في أهل الشمال من أوربا ، وهي إن شوهدت هنالك ، اتخذت يريق طيف من أطياف اللون الأحمر التي نراها في البحر الأوربية وفي النبيذ بنوع خاص ، ودلت على أن صاحبها يكثر من الشراب حتى تأثرت به بشرة وجهه . أما هذا اللون في هذا الرجل فكان فيه شيء آخر يميزه ويدل على أنه من لفح شمس قوية ، قد تكون شمس جنوب أوربا ، أرض تلك الأعناب الخضراء الزاهية التي تجدها ممتدة إذا سار بك القطار من نابولي إلى روما ، أو تلك الأراضي الساحرة القائمة حول خليج سورنت حيث تجتمع زرقة الماء بزرقة السماء تغشى الاثنتين غلالة من نور لا تقطع اتصالها إلا الأرض الأرجوانية . ويزيد في جمالها ذلك الدخان الأبدى المتدفق من المارد الرابض في جوف الأرض . أو ربما كان ، إذا لم يكن من أهل تلك البلاد ، من أهل إقليم أوربي في الجنوب من أوربا أيضاً ، إقليم حدائق البرتقال ، ذلك الذي عرف العرب فترة طويلة ولكن إلى حين . ذلك أول ما يفكر فيه الأوربي إذا ما رأى شخصا قريبا إلى لون بشرته ، فهو لا ينتقل بالفكر إلى قارة أخرى ولو إلى الشاطئ الآخر من البحر المتوسط ، فذلك العالم بصحرائه ونخيله وجماله بعيد عليه .

كان هذا الرجل الثالث ذا شارب قصير ، وكان أصلع الناصية وكان بياض الشيب قد طغى على البقية الباقية من شعره ، وقد وضع على عينيه منظارا ينحني لونهما المائل إلى خضرة ، خضرة زيتية عميقة . أما الرجل الرابع فلا يجهل الناظر إليه أنه من أرض إفريقية ، ومن تلك الأرض التي عرفت الفراعنة ، فلو أنه الاسمر مزيج من اللبن واللبن وجسده الممتلئ يوحى بفكرة عامة عن تمثال « شيخ البلد » المعروف من رسومه بأوربا .

خرج الرجال الأربعة يهرولون في ضوء مصابيح خافتة ، يتقدم البولونيان الجماعة ، وركبوا سيارة أجرة ، فسارت بهم تشق طريقها بين شوارع بعضها واسع وبعضها ضيق إلى أن وصلت أمام بناء نفخ شاهق ، أول ما يلتفت النظر إليه باب كبير من الحديد المذهب . وأمام هذا البناء ساحة كبيرة مرصوفة يحيط بها سور

قصير، وفي هذه الساحة صفت موائد عدة . وأسرع البولونيان إلى مائدة منها على مقربة من السور في الجانب الآخر وتبعهما المصريان، فإذا النهر يجري تحت تلك الساحة، وإذا هم يشرفون على منظر ساحر .

جلس الأربعة، وأسرع المضيفان فطلبوا من الخادم شيئاً لم يتميز المصريان منه إلا كلمة « فودكا »؛ فقد ألفا هذه الكلمة منذ وطئت أقدامهما تلك المدينة التي تكاد تكون روسية في مشربها . وجاء الخادم بعد قليل بزجاجة كبيرة مليئة بالفودكا، وأربعة أقداح، وجلس الأربعة إلى الشراب ودار بينهم الحديث .

كان هذا البناء الفخم نادياً لرجال الجيش يسمرون فيه ويرقصون، ولا بأس من دخول بعض الضيوف إليه . وأكثر الضيوف عادة من النساء . ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى كانت أنعام الجاز تتراعى إليهم بطيئة ساحرة أحياناً، فإذا هي تانجو أو رومبا، أو سريعة أخاذة فإذا هي فوكس تروت . وأخذت الفودكا تتمشى في مفاصلهم سريعاً، فتبدل الجو البارد إلى دفء أشبه شئ بدفء إفريقية، ولملت مياه النهر أمامهم فذكرت اثنين منهم بنهر آخر بديع ولكنه عظيم، وبدأ ينسيان العالم إلا تلك الجلسة السعيدة، غابت عنهما معالم الزمن . وهل لدى الإنسان ساعات أسعد من تلك التي ينسى فيها الزمن !

كان الحديث يدور بين الأربعة متقطعا؛ إذ لم تكن لديهم رغبة في البحث العميق، ولم ينتظم غير ملء الأفراح كلما أفرغ أحدهم في جوفه تلك النار المذابة . حتى إذا أتى الأربعة على الزجاجة قال أحد البولونيين: هيا بنا . وقام المصريان—في شئ من التردد—من تلك الجلسة اللذيذة .

ركب الأربعة عربة يجرها جواد أعجمي، فسارت بهم على مهل في الشوارع الضيقة والمتسعة لتلك المدينة القديمة، وربما سارت في ذات الشوارع التي اخترقوها . ولكن كيف يعرفها الأجنياء! إذ لم يبقا في العاصمة البولونية قبل ذلك إلا بضعة أيام . ولو أنهما عملا على تعرف الشوارع لما تيسر لهما ذلك الآن . وكيف يستطيعان وقد ملأت الفودكا رأسيهما بنشوة أضفت على العالم من حولهما غلالة شفافاً لا تكاد تتميز بينها الأشياء، ولكنها لامعة .

سارت بهم العربة إلى أن وقفت أمام كومة من الظلمة هي بناء شامخ له باب ضيق عليه حارس، ونزل الأربعة مسرعين ودخلوا في طريقة طويلة سلموا في آخرها معافهم إلى فتاة جميلة . ومن باب قصير دخلوا إلى ردهة واسعة .

كانت الردهة غاية في الإناقة ، وقد صفت حولها موائد للجالسين ، وفي وسطها مكان قسيح من الخشب يستعمل ساحة للرقص أحياناً ، وللعرض أحياناً . وكانت الردهة مضاءة بنور أبيض ضئيل يحاكي ضوء القمر في هدوئه وفي خفوته ، وكان هذا النور الخافت يبرأى من مصايح رسمت على شكل أقمار ونجوم ، في قبة الردهة التي كان لونها أزرق صافياً يحاكي لون السماء . وكانت الموسيقى تعزف رقصة تانجو ، في حين أخذ اثنان من الراقصين يقومان بعرض الرقصة .

جلس الأربعة إلى مائدة ليست في الصف الأول من المتفرجين ، لجميع الموائد في ذلك الصف كانت مشغولة ، وجاءت في الحال زوجة الفودكا الكبيرة والاقداح الأربعة .

كان المصريان يشعران أنهما احتسيا فوق طاقتهما من هذه الحمر الشديدة ، ولكنهما في سبيل مجارة مضيفيهما ، أو لأنهما خافا أن يضطرا إلى نوع آخر من الشراب ، أو بسبب ما تجرّه الحمر من فقد الإرادة ، لم يعترضا على الفودكا . امتلأت الكؤوس وأخذ الغريبان يميلان النظر فيما حولهما ، فإذا الحاضرون على ما يظهر من رجال الطبقة الممتازة ، وإذا مجموعة من الرجال في ثياب السهرة الانيقة ، ومجموعة من النساء في أغلى الثياب وأبدعها زياً ، غير أن العجيب في هذا الجمع أن أجل السيدات وأكثرهن فتنة كن يجلسن عادة مع رجال متقدمين في السن ، ابيض شعر الرأس منهم أو فقدوه . وهكذا كان حظ هؤلاء النساء الطامعات في الزينة والثراء . إن من حظهن أن يبذلن شبابهن لأكثر الرجال قدرة على إرضاء رغباتهن في المال ، وهؤلاء يكونون عادة من الرجال الذين أنفقوا زهرة شبابهم في جمع الثروة ، فإذا نالوا شيئاً منها ، كان شبابهم قد ذهب ، وهم على الأقل يستطيعون أن يتعلقوا بأذيال الشباب ، بأن يصحبوا هؤلاء الفتيات الجميلات . وهكذا ستظل الحال دائماً ما دام الذهب هو المسيطر على الأمور . وستجد دائماً رجالاً أثرياء يتمتعون بشباب الفتيات ، وفتيات جميلات يبعن شبابهن من أجل المال .

كان الرجال الأربعة قد ملئوا خمرأ بحيث غشيت أبصارهم غشاوة من أثر الحمر ، وكانهم ينظرون إلى الحاضرين من خلال ضباب ، وصاروا يتكلمون بأحاديث متقطعة أكثرها دعوة واستحسان للزبد من الشراب ، تقطعها ضحكات صغيرة على عبارات تافهة . غير أن أحد المصريين كان لا يزال فيه بقية من قوة الملاحظة ،

ولم يكن يستطيع أن يحول نظره وبقية أفكاره عن اثنين جالسين بحيث لا يرى منهما غير الظهر، إلا إذا التفتا قليلا إلى الخلف. كان الرجل بدينا ذا رأس أملس إلا من حفاف من الشعر الأبيض، على أنه يرتدى ثياب السهرة السوداء من خير الأقمشة، وقيمه وياقته غاية في النقاء، وهو حليق اللحية والشارب، وقد غضنت وجهه التجاعيد من كل جانب، ولا سيما في أسفل الرقبة. وإلى جانبه فتاة شقراء هيفاء أنيقة، وقد ارتدت ثوباً من الحرير الأزرق، وتعرى ظهرها إلى ما يقرب من الخصر. من وهو ظهر جميل في تكوينه جلالاً يفوق التصور. وقد فكر المصري لعل هذا الظهر هو الذي سلب لب صاحبها، ثم ابتسم لفكرته.

كان الرجل يدخل سيجاراً غليظاً ورأسه إلى وراء وأمامه الكأس اللامعة، أما الفتاة فكانت منحنية إلى الأمام قليلاً، وقد وضعت رجلاً على رجل وأخفت تدخن سيجارة، وأمامها الكأس.

ولقد كان ظهرها في جماله وأخفائه القليل كأنه يتكلم. إنه لا شك يعبر عن سأم، سأم قليل ليس معناه أنها ستحاول أن تغير من هذه الحياة، بل معناه أنها ستظل ترتاد هذه المنتديات الليلية؛ فهي مسكن يقبها شر التفكير في حياتها. ومن قال إن المسكن من الأدوية يُشعر بالصحة! إنه يخفي الألم الكامن.

كانت المناظر تتتابع، من راقصة تكاد تكون عارية تعرض فنها، إلى مغن هرم حسن الصوت! كل منهما يعرض فنه ثلاث مرات، وبين هذا وذاك أدوار الرقص يشترك فيه بعض الحاضرين. غير أن هذا السيد لم يقيم بمراقبة زوجته أو صديقته، واستمر جالسين: هو يدخل سيجاره، وهي بظهرها الحلو الجميل المنحني قليلاً تدخن سيجارة، أو ترتشف جرعة من الكأس. وليس ثمة شك في أنه لو طلب إليها المراقبة لانتصبت بقامتها الهيفاء، وتخاصرت هذا الجسد البدني. إنه جزء من واجبها!

عاد دور العرض، وكان الرجل المخمور لا يزال ينظر إلى الجسد البدني، وإلى جانبه الظهر الجميل المنحني قليلاً، يمثل السأمة والملل، فإذا بهذا الظهر ينتصب فجأة ليرقب شيئاً، وإذا بصوت يحدته الحرير من تغير أوضاع الجلوس بين مئات من النساء! لا ريب في أنه أخذ، ينتبهن باهتمام إلى العرض.

التفت الرجل فإذا فتى قوى الجسم ذو شعر أصفر غزير ولكنه قصير ،
ترتدى ثياباً زرقاً على مثال شباب الفلاحين الروس ، ولكنها من الحرير
الازرق الفاتح البراق ، وهو جميل الصورة جدا ، غير أن كل حركة في جسمه تنم
عن رجولة .

وعزفت الموسيقى في قوة وحرارة رقصة روسية ، وأخذ الشاب ينثنى على
ساقيه ثم يقفز ، وكان سريعاً رشيق الحركة ، وكانت الموسيقى خاطفة وقصيرة ،
وانتهى الرقص سريعاً ، وخرج الفتى بين تصفيق حاد ، أغلبه من النساء الجميلات .
لم تمض فترة حتى عادت الموسيقى الى عزف رقصة روسية من نوع
« الجوباك » وعاد الفتى الى الرقص ، وكان سريعاً ورشيقاً وقوياً ، وكان اهتمام
النساء واهتمام الظهر الجميل بادياً للرجل المصرى ، حتى كاد يرفع عن عينيه شيئاً
من غشاوة الخمر .

وعلى حين نجأة وإثر قفزة هائلة من الراقص ، دوى في أرجاء المكان صرخة
امرأة وشهيق .

وهب الجالسون الأربعة ؛ إذ قال أحد البولونيين منهم : « هيا بنا » . وهول
الأربعة إلى الخارج يترحون ، ولم يستطع المراقب منهم أن يتبين وسط الدخان
والخمر إلا أن صاحبة الظهر الجميل لم تكن هي الصارخة .

من محمد